إنجيل يوحنا: رحلة الإيمان

«ولا أنا أدينك»

(٨: ١-١١)

تأليف: بروس مكلارتي

يفضل الكثيرون القصة التي وردت في الأصحاح الثامن من إنجيل يوحنا اكثر تفضيل. هذا النص وفي إحدى عشرة آية قصيرة نجد لب ومركز خدمة يسوع. هذا النص هو قوي جداً بحيث يتركنا مع صورة ليسوع لا يمكن نسيانها.

كيف تعامل يسوع مع مأزق (٨: ١-٩)

تبدأ القصة بيسوع وهو في طريقه إلى جبل الزيتون، وهو ما اعتاد ان يقوم به خلال الاسبوع الأخير قبل صلبه.[١] عندما اجتمع حوله الناس، جلس وبدأ يعلمهم. وأثناء ذلك، أتى الكتبة والفريسيون.[٢] إلى يسوع بامرأة ضُبطت تزني. وبدون اهتمام ولا تعاطف مع المرأة «أقاموها في الوسط» (٨: ٣)، وأشهروها لكي تستهزيء بها العامة. اصبحت رغبتهم الأساسية واضحة، فلم يكن هدفهم كيفية التعامل مع المرأة، بل لينصبوا ليسوع فخاً.

قالوا له: «يا معلم، هذه المرأة أُمسكت وهي تزني في ذات الفعل. وموسى في الناموس أوصانا أن مثل هذه تُرجَم، فماذا تقول أنت؟» (٨: ٤ و٥). كانوا قد ظنوا للحظة بانهم نصبوا فخاً مناسباً. كان مجلس اليهود صارم في طلب الاثبات. لم يكن الشك أو الاشاعة تكفي ولا حتى رؤية شخصين يدخلان بيت ما. كان من الضرورة ان يكون هناك شهود عيان على عملية الزنى قبل اتهام أي شخص من قبل الكتبة والفريسيون.

لقد قام معارضو يسوع بعملهم بدقة حتى هذه اللحظة، وكانوا متأكدين بانهم قد أوقعوه في شرك. لو قال لهم يسوع بان لا يرجموا المرأة، ألا يكون قد انتهك ناموس موسى؟[٣] والأكثر أهمية هي ان مثل هذه الإجابة تجعل الكتبة والفريسيون يعتبرون يسوع غير حكيماً وغير أميناً للناموس. ولكن إذا اتخذ موقف مغايراً لذلك وقال: «ارجموها!» لكان يسوع قد عرض نفسه لاتهامات بانه ثوري ومحرض ومستخف بدستور روما الذي يمنع اليهود من تنفيذ عملية الاعدام.[٤] لو استجاب يسوع بإحدى الطريقتين، لكان قادة اليهود قد وضعوه في نفق مسدود. عندما ندرك مكر هذه الخطة حينئذ نبدأ

---

[١] يشير إنجيل لوقا ٢١: ٣٧ بان يسوع كان يعلم في أورشليم في النهار ويرجع إلى جبل الزيتون ليلاً. ربما كان يذهب إلى بيت مريم ومرثا في بيت عنيا، التي كانت تقع في الانحدار الشرقي من جبل الزيتون.

[٢] «الكتبة والفريسيون» تم ذكر هذا التعبير بتكرار في إنجيل متى ومرقس ولوقا، وهذه هي المرة الوحيدة التي تظهر فيها في إنجيل يوحنا.

[٣] أنظر سفر اللاويين ٢٠: ١٠؛ تثنية ٢٢: ٢١-٢٤.

[٤] أنظر يوحنا ١٨: ٣١. رجم استفانوس في الأصحاح السابع من أعمال الرسل والذي بدا كانه تنفيذ الاعدام كان بالحقيقة قام به حشد هائج عوضاً عن كونه اعدام قانوني.

في تقدير الطريقة الذكية التي استجاب بها يسوع.

علم يسوع بان دوافعهم كانت شريرة (٨: ٦). أين كان الرجل الذي زني مع تلك المرأة. الزنى ليس خطية يرتكبها الشخص بمفرده، ومع ذلك أتوا بالمرأة وحدها إلى يسوع. يتضح بان ما كان يهمهم هو احراج يسوع اكثر من اهتمامهم بتطبيق ناموس موسى. كان اهتمامهم الأكبر بالسلطة وليس بعمل الصلاح والبر.

لم يجبهم (آية ٦)

عندما بدأ معارضو يسوع يواجهونه « بسؤال لا يمكن الإجابة عليه »، فضل ان لا يقول شيئاً مطلقاً! وإذ كانت الانظار محدقة إليه، انحنى يسوع وبدأ يكتب بأصبعه على الأرض (٨: ٦). لا بد ان الهدوء كان قد ساد للحظات. لقد رفض أن يجيب على سؤالهم. إذن ما الذي كان يفعله؟ ومتى كان سيستأنف الحديث مرة أخرى؟ وماذا كانت الخطوة التالية من قبل قادة اليهود؟

أحياناً يكون السكوت أفضل من الكلام. عدم الإجابة أفضل من الإجابة؛ يقول سفر الأمثال ٢٦: ٤ و٥ ما يلي:

> لا تجاوب الجاهل حسب حماقته لئلا تعدله أنت. جاوب الجاهل حسب حماقته لئلا يكون حكيماً في عيني نفسه.

يبدو لأول وهلة بأن هاتين الجملتين متناقضتين. ولكن عند المزيد من التأمل نرى أن هناك وقتا لمجاوبة الجاهل حسب حماقته، ووقتا آخر لا تكون في الاجابة حكمة. في الأصحاح الثامن من إنجيل يوحنا لم تكن الإستجابة حكمة، بغض النظر عن صدق الكلمات، لم يكن بالامكان الاستماع إلى الحق في تلك الحالة. كان السؤال ملتوياً، والجو السياسي محتداً، ولم يمكن توضيح الحق بأية إجابة. في مثل هذه الحالة لم يجب يسوع بشيء.

حوّل يسوع الأضواء عليهم (الآيات من ٧ – ٩)

وأخيراً وبعد ما استمر الكتبة والفريسيون يصرون على انه يجب على يسوع أن يجيب على سؤالهم، انتصب وقال كلام بات يردده المسيحيون على مر الألفين سنة الماضية: « من كان منكم بلا خطية فليرمها أولاً بحجر » (٨: ٧). ثم انحنى مرة أخرى إلى أسفل ليكتب على الأرض. لا بد ان الجموع شعروا بأسى مرة أخرى عندما بدأ كل واحد منهم يدرك قوة الكلمات التي تكلم بها يسوع.

ما الذي كان يكتبه يسوع على الأرض؟ لا توضح لنا هذه القصة ما كان يكتبه حقاً. قال البعض بانه لم يكن يكتب شيئاً، بل كان يعطي لمعارضيه وقتاً ليراجعوا انفسهم. وقال البعض بانه كان يكتب قائمة بالنصوص التي تدين ما كان يفعله الكتبة والفريسيون في ذلك اليوم. وظن آخرون أيضاً بان يسوع كان يكتب قائمة بالخطايا التي كان قد ارتكبها متهمو هذه المرأة. مهما كتب أو لم يكتب، حول يسوع الأضواء بقوة كلامه عن المرأة إلى الذين أتوا بها إليه.

بكلماته القائلة: « من كان منكم بلا خطية » ضايق يسوع قادة اليهود كما ضايقوا هم المرأة التي ما زالت في وسط الجمع. من السهل دائماً التركيز على خطية شخص آخر من أن نواجه خطايانا. أشتدت المضايقة حتى مضى كل شخص ابتداءاً من الكبار حتى الصغار. ربما خرج الكبار أولاً لأنهم الذين يتحملون المسؤولية إذا ما قام الجمع بعمل حماقة. ربما كان الكبار هم الأكثر حكمة والأسرع في تقدير الحكمة التي استجاب بها يسوع. مهما كان تفكيرهم، فقد أدركوا بان يسوع حوّل سؤالهم الذي لا يمكن الإجابة عليه إلى نصيحة مستحيلة.

كيف تعامل يسوع مع شخص (٨: ١٠ و١١)

بعد تعامل يسوع مع هذا الوضع ببراعة، أوضح بعد ذلك كيف يتعامل مع الشخص. بعد ما خرج الناس، انتصب يسوع ونظر حوله، وسأل عن المشتكون عليها قائلاً: « يا امرأة، أين هم أولئك المشتكون عليك؟ أما دانك أحد؟ »

(٨: ١٠). حتى تلك اللحظة نعرف القليل عن تلك المرأة. مع انها ضحية سوء النية ، لم نُخبر بشيء عنها غير خطيتها! هل كانت لطيفة وظريفة أم كانت قاسية وممقوتة عندما وقفت في وسط متهميها (٨: ٣ و٩)، هل كانت تبكي بهدوء وبدموع مثيرة للشفقة كمن سحقها العار، أم كانت تتحدى بغضب الذين جروها إلى الهيكل؟ كل ما نعرفه عنها هو انها ضُبطت وهي تزني وأُشهرت خطيتها علناً في الهيكل. ما يجعل هذه القصة مثيرة للعجب ليس تلك المرأة، بل الطريقة التي استجاب بها يسوع لها.

تعامل يسوع معها بوقار

هل حدث عنك الناس في وجودك قط؟ ربما كان ذلك عندما كنت طفلاً أو مريضاً بمستشفى قد سمعت آخرون يتحدثون عنك كما لو لم تكن حاضراً. هذه تجربة تجرد الشخص من الإنسانية. وهذا ما أُجبرت المرأة عليه بأيدي الكتبة والفريسيين. لم تكن كإنسانة بل كمشكلة لا غير. وعندما تغلب يسوع على متهميها، تحول وتحدث إليها. الحقيقة ان يسوع تحدث إليها وليس عنها قد تكون أعز عطية أُعطيت لهذه المرأة على الاطلاق.

لم يرها يسوع كشخص فاشل، او محرج، ؛ او مزعج، بل رأها كإنسانة وخليقة الله، ذات قيمة كبيرة معطاة من قبل الله. حديث يسوع إلى الجموع كان من عادته، وهكذا يعتبرنا اليوم أيضاً وكانت نظرته الينا أيضاً عادية. انه يقيّم كل واحد فينا ويحبنا حباً عميقاً. في عالَم نشعر فيه بلا قيمة، يعاملنا يسوع بكل احترام. التقاءه مع المرأة التي ضُبطت في زنا هو دليل قوي على تلك الحقيقة.

تعامل معها برآفة

لم يتعامل يسوع مع المرأة باحترام فقط، بل أظهر نحوها رآفة عجيبة أيضاً. كان أول عمل لاظهارالشفقة قام به هو الكتابة على الأرض. هل يبدو ذلك غريباً؟ تخيل المشهد مرة أخرى. أتوا بالمرأة إلى الهيكل حيث كان يسوع يعلم. وأعلن الكتبة والفريسيون بجرأة ليسوع ولكل من كان هناك بانها ضُبطت وهي تزني. لا بد ان كل الأنظار كانت محدقة بتلك المرأة بسبب ما لحق بها من عار. هل يوجد شيئاً أكثر اذلالاً من ذلك؟ عندما سُئل يسوع عما يفعل بها، انحنى وبدأ يكتب على الأرض. في تلك اللحظة بدأ كل شخص ينظر إلى عمل يسوع الغريب هذا. ماذا كان يكتب؟ وهل كان ما يكتبه يعني شيئاً؟ متى سيتكلم؟ هل كشف قادة اليهود بعض التناقض في تعليمه؟ تحول الأنظار فجأة عن المرأة. كان تحول أنظار الجمع من المرأة إليه أول عطية رآفة أعطاها يسوع.

بعد ذلك، نسمع كلام يسوع للمرأة بعد ما خرج متهموها: «ولا أنا أدينك، ...» (٨: ١١). كان ذلك تعبيراً قانونياً يعني: «ولا أنا أحكم عليك بالموت». مع انه كان يمكن ليسوع ان يضحي بحياة تلك المرأة لكي يحافظ على شهرته بين الجموع، إلا انه رفض ذلك. الشخص الوحيد في ذلك اليوم الذي كان يحق له ان يرميها أولاً بحجر هو الذي قال: «ولا أنا أدينك». كانت تلك أعظم عطية رأفة يمكن تقديمها.

تعامل معها بصراحة

الذين يحاولون ان يجعلوا من هذه القصة قصة عاطفية وتهاون مع الخطية قد تغاضوا عن هذا الجزء: عندما سمح يسوع للمرأة بالذهاب قال لها: «اذهبي ولا تخطئي أيضاً» (٨: ١١). كان يسوع ليناً، ولكنه واضحا في كلامه عن خطيتها. كان ينبغي مواجهة خطيتها. نحاول تجنب خطيتنا اليوم بعدة طرق. نحاول ان نتجاهل الخطية ونقول («أنا لا احاول التفكير بذلك»، أو ننكر الخطية ونقول («أنا لا أرتكب الأخطاء»)، أو حتى نبرر الخطية بقول («لقد فعلت ذلك بسبب والديّ أو العمل، أو الوسط الاجتماعي»). وأما يسوع فأصر على انه يجب على المرأة ان تواجه خطيتها. قال بان الخطية هي «خطية». ينبغي أن نتعامل نتعامل مع الخطية بهذه الطريقة نفسها اليوم. لا يستيجب يسوع إلى خطيتنا بقول: «لا تهتم بذلك. ليست بالمشكلة!» ولكن عوضاً عن ذلك،

يقول بان الخطية هي همه الكبير، كبير الى حد الصلب! لكي يتم عمل الفداء، لا بد أن نواجه حقيقة وإثم خطايانا. رغم اننا لن نستطيع ان ندفع ثمن خطايانا، لا بد ان نكون صريحين عن طبيعة الخطية فينا. وإلا فلن تكون هناك توبة. إن لم ندرك سوء خبر خطيتنا، لا ندرك جمال خبر الإنجيل السار! ما زال يسوع يصر على انه يجب على شعبه ان يكونوا صريحين في مواجهة خطيتهم وان يتحملوا مسؤولية أعمالهم.

تعامل معها بالنعمة والرجاء

لا يوجد شيء في هذا النص يوضح بان يسوع غفر للمرأة خطيتها. ولكنه رفض ان يحكم عليها بالموت. كلماته الأخيرة للمرأة تذكرنا بما كان قد قاله للمفلوج الذي تم شفاءه عند بركة بيت صيدا: «ها أنت برئت فلا تخطئ أيضاً لئلا يكون لك أشر» (٥: ١٤). لم نُخبر في هذه القصة كيف كان رد فعل المرأة بما فعله يسوع لها. هل آمنت؟ هل تابت عن خطيتها؟ ليس لدينا الأجوبة على كل تلك الأسئلة.

ولكن يمكن ان نتأكد بان يسوع أعطاها رجاء للمستقبل. عندما نعرف عن خطية شخص ما، نميل دائماً إلى الحديث عن الزمن الماضي عوضاً عن النظر إلى الأمام، (ما زلنا بعد ألفين سنة نصف تلك المرأة بـ«المرأة الزانية»!)، اصبحت خطيتها كهوية. كلمات يسوع للمرأة تنادي بالرسالة: «يوجد في حياتك الكثير وليس خطيتك فقط. يمكنك ان تتحولي عن الخطية!» كان هذا هو الخبر الذي تحتاج إليه تلك «المرأة الزانية»، وهو الخبر الذي يحتاج إليه أيضاً كل الناس في كل زمان. يسوع الـ«مملوءاً نعمة وحقاً» يعطي لكل منا فرصة لبداية جديدة!

الخلاصة

القصة التي وردت في إنجيل يوحنا ٨: ١-١١ تجعلنا نتسائل عما اصبحت عليه تلك المرأة. هل تبعت يسوع، أم عادت حالاً إلى ماضيها المشين؟ ما نتمناه هو بانها قدّرت العطية العجيبة التي أعطاها لها يسوع، ولكن لا يخبرنا الكتاب المقدس بشيء من هذا القبيل. ربما كان من الأفضل ان لا يخبرنا بشيء، لأن هذه القصة هي إساساً قصة كل منا أيضاً. عندما نسمع رسالة يسوع، «نُضبط» في خطية أيضاً. ونرى بان أمرنا قد انكشف، وبان الله يعرف خطيتنا، وباننا مذنبين.

يغتاظ البعض أحياناً بان الناس جاءوا بالمرأة إلى يسوع بينما لم يأتوا بشريكها في الخطية. ولكن بالحقيقة كانت المرأة هي المباركة في ذلك اليوم. ربما نجا شريكها في الزنا من الكتبة والفريسيين، ولكنه لم ينجو من معرفة الله له. لقد انخدع عندما ظن بانه نجا. ولكن المرأة من ناحية أخرى لم تنجو من حقيقة خطيتها. لقد استفادت هي مما حدث وليس شريكها. عندما ننكر طبيعتنا الخاطئة، فاننا نحبط رغبة الله في ان يغفر خطايانا.

نحن مثل تلك المرأة مدانين من قبل الجمع. لو كان الناس يعرفون كل ما فعلناه وما فكرنا به، لأدانونا بكل تأكيد. يعرفنا يسوع أكثر مما نعرف أنفسنا، ومع ذلك فهو يشجعنا (أحياناً إذ ينحني إلى أسفل)، كما فعل للمرأة. هو يقف بيننا وبين الحشد المشتكي علينا، وبيننا وبين الإدانة، وبيننا وبين الصليب!

ربما انصرف بعض الذين كانوا في الهيكل إلى ديارهم في تلك الأمسية متذمرين بانه لم تكن هناك عدالة في ما عمله يسوع. «ينبغي دفع ثمن الخطية» هكذا قال البعض بكل تأكيد. ما لم يدركوه هو ان ثمن الخطية قد دُفِع حقاً بحدث تم ذكره في ما بعد في إنجيل يوحنا. الذي قال: «ولا أنا أدينك» كان هو «حمل الله الذي يرفع خطية العالم!» (١: ٢٩). لقد دفع ثمن خطايانا على الصليب، ويقول الآن لجميعنا نحن المدانين بالخطية: «ولا أنا أدينكم. اذهبوا ولا تخطئوا أيضاً».

جميع الحقوق محفوظة ٢٠٠٧